وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

هدايات القرآن في التعايش السلمي مع غير المسلمين

اسم الباحث/ـة

د/ فاطمة عبد الله عبد اللطيف صالح

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

الحمد لله الحكم العدل اللطيف الخبير الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض وهو القوي العزيز والصلاة والسلام على نبي الرحمة، وقائد الأمة، وعلى آله وأصحابه، والتابعين بإحسان إلى يوم الدين. وبعـد"

فهذا بحث بعنوان:(**هدايات القرآن في التعايش السلمي مع غير المسلمين)**

وقد اخترت هذا البحث للأسباب التالية:

أولاً:شرف مصاحبة الكتاب العزيز في معالجة مايتعلق بالإنسان دنيويًّا وأخرويًّا

ثانياً: بيان هدايات القرآن في تأصيل التعايش السلمي، ورفض الدعاوي الباطلة لدى الأوروبيين من معلومات خاطئة ومشوهة للإسلام .

ثالثاً:التأكيد على أن الدين الإسلامي دين سلم وسلام مع كل بني الإنسان، لا دين حرب وقتال كما يدعي أعداء الدين.

رابعاً:دحض شبهة المشككين والكارهين وأعداء الدين من خلال إظهار مبادئ الإسلام العالية وقيمه الأخلاقية السامية وتشريعاته الحكيمة.

والهدف من وراء ذلك:

١. التعرف على مراد الله –عز وجل– في الآيات التي تتحدث عن هدايات القرآن في التعايش السلمي مع غير المسلمين بقدر الطاقة البشرية.

٢. إظهار شمولية الإسلام وهيمنته.

٣. توضيح الهدي القرآني في التعايش السلمي مع غير المسلمين والقضاء على العنصرية وسياسة الاقصاء.

٤. تأصيل سماحة الإسلام في التعايش السلمي مع غير المسلمين من خلال الآيات القرآنية.

منهج البحث:

ومنهجي في البحث يقوم على المنهج الاستقرائي التحليلي الاستنباطي، **وتتضح خطوات المنهج من خلال النقاط التالية:**

١. قمت بجمع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تتعلق بموضوع البحث.

٢. شرح الآيات القرآنية شرحًا موضوعيًّا، مع الاستشهاد ببعض الأحاديث المتعلقة بعناصر البحث.

٣. عزو الآيات القرآنية.

٤. تخريج الأحاديث من كتب السنة، والحكم عليها.

ويشتمل هذا البحث على مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أما المقدمة: فبينت فيها أسباب اختياري للموضوع، والهدف من وراء اختياره، والمنهج الذي سرت عليه في هذا البحث.

وأما التمهيد: فيدور حول التعريف بمصطلحات العنوان.

وأما المبحث الأول: فقد جاء بعنوان: هدايات القرآن في التعايش السلمي مع غير المسلمين، **وفيه مطلبان:**

المطلب الأول: هدايات القرآن في التعايش السلمي من خلال التعامل الإنساني.

المطلب الثاني: هدايات القرآن في التعايش السلمي ورعاية الحقوق وإثبات الذات.

وأما المبحث الثاني فقد جاء بعنوان: هدايات القرآن في التعايش السلمي وسنة التدافع، **وفيه مطلبان:**

المطلب الأول: الأسس التي تبنى عليها العلاقات الإنسانية في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: عقد الذمة.

وأما المبحث الثالث فقد جاء بعنوان: النبي صلى الله عليه وسلم قدوة في ترسيخ التعايش السلمي ورعاية حقوق غير المسلمين.

هذا وسوف يُستَقى – بإذن الله – من مصادر تفسيرية ومن كتب الحديث وأخرى معاصرة.

التمهيـــــــــد:

هدايات جمع هدى والهدى: إخراج شيء إلى شيء، والهدى أيضًا: الطاعة والورع، والهدى: الهادي في قوله -عز وجل-: أو أجد على النار هدى؛ والطريق يسمى هدى.... وهدي:من أسماء الله تعالى سبحانه: الهادي، والهدى ضد الضلال وهو الرشاد. (١)

والهداية: هي الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلاً، وهي من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض، لا يصح حصول الثاني إلا بعد الأول، ولا الثالث إلا بعد الثاني، فأول المنازل: إعطاؤه العبد القوي التي بها يهتدي إلى مصالحه، إما تسخيراً، وإما طوعاً، كالمشاعر الخمسة، والقوى الفكرية، وبعض ذلك أعطاه الحيوانات، وبعضه خص به الإنسان. (٢)

القرآن: كلام الله تعالى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته. (٣)

التعايش لغة: عَايَشَه: عاش معهُ، عيَّشه: أعاشه، وتعَايَشُوا: عاشوا على الآلفة والمودَّة، ومنه التعايش السِّلمِيّ. (٤)

واصطلاحاً: يقصد بالتعايش أن يعيش الرجل مع الخلق، فيسلم منهم وينصفهم من نفسه، فيلقى الله -عَزَّ وجَلَّ-، وقد أدى إليهم حقوقهم، وسلم بدينه بين ظهرانيهم. (٥)

السلم: الإسلام، والسلم: الاستخذاء، والانقياد والاستسلام، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾[النساء: ٩٤]وقرئت:

---

(١) لسان العرب ،٣٥٥/١٥ الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني:٦١/١، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ).

(٣) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله دراز صـ٤٣.

(٤)المعجم الوسيط، مادة (عيش) ، صـ ٦٦٣.

(٥)موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة:٤٤/١، المؤلف: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. مصر.

السلام، بالألف، فأما السلام فيجوز أن يكون من التسليم، ويجوز أن يكون بمعنى السلم، وهو الاستسلام وإلقاء المقادة إلى إرادة المسلمين. (١)

والسَّلَم والسِّلْم: الصلح، وقيل: هو بمعنى الإسلام، ويقال للصلح: السلم، فلا يكون مرادًا هاهنا؛ لأن المسلم مخيّر إذا طلب الكافر منه السلم بين أن يبذله له، وبين أن يمنعه. (٢)

(١) لسان العرب: ١٢/ ٢٩٥.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني:٣/١٤٠٣.

المبحث الأول: هدايات القرآن في التعايش السلمي

توطئة: لقد خلق الله الإنسان مدنيًّا بطبعه، فهو مجبول على طلب المعايشة والتفاعل مع بني جنسه، ولقد خلق الله البشرية من نفس واحدة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. (١)

فالبشرأخوة أشقاء من أب واحد وأم واحدة، وبموجب هذه الأخوة الإنسانية، يتحتم على الإنسان أن يشارك أخاه الإنسان في جميع مجالات الحياة، ولقد حظيت الإنسانية بالتكريم من رب العالمين، واختير الإنسان من بين سائر المخلوقات؛ لتحمل الأمانة العظيمة التي من أجلها خلق، وعلى تبعاتها يحاسب،قال تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾.(٢)

ولقد خلقنا الله أممًا وجماعات وشعوبًا وقبائلَ، وبث فينا روح التعارف والتآلف، قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. (٣)

وخطاب الله للبشرية في القرآن الكريم بقوله: ﴿يا أيها الناس﴾ فيه دلالة واضحة على مساواتهم في الإنسانية التي تعد ركيزة للتعايش والتفاعل بين الإنسان وأخيه الإنسان، والمسلمون أقدر الناس على التعايش والتفاعل الإيجابي مع المخالفين لهم في الدين، ما داموا مسالمين .

---

(١) النساء: ١.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

(٣) الحجرات: ١٣.

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١)

وقد ساوت وثيقة المدينة والتي تعتبر بمثابة دستور يحكم أهل المدينة الذين كانوا مختلفين من حيث الدين (الإسلام والشرك واليهودية) بين الجميع في الحقوق العامة والواجبات من حسن الجوار والتناصر، وما يسمى في عصرنا الحاضر بحقوق المواطنة والتعايش، وهذا يعد أكبر برهان عملي على التعايش والمواطنة مع الفئات المختلفة.

ولقد رسم القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة الصورة الكلية لأسس ومظاهر التعايش السلمي بين الإنسانية على سبيل العموم، وبين الإنسان وبين نفسه وتكوين ذاته من خلال تحقيق العزة الإيمانية على سبيل الخصوص، ومن مميزات هذه الصورة أنها صورة وضاءة ناصعة لا عوج فيها ولا التواء، كما أنها كافية برد شبهه المشككين والحاقدين بأن الإسلام دين تطرف وإرهاب، فالفئة المسلمة بمثابة الناقل الأمين لصورة الإسلام الحقيقية، فهم سفراء الإسلام، وحراس العقيدة، ونواب الأمة.

وهذا ما سوف نوضحه من خلال مطلبي هذا المبحث.

المطلب الأول: هدايات القرآن في التعايش السلمي من خلال التعامل الإنساني

توطئة :إن الانغلاق والتقوقع في أي مظهر من مظاهره لا يخدم قضية التعايش السلمي، ولا يخدم الرفاهية والإخاء الإنساني، وهما الأسس الضرورية؛ لبقاء النوع الإنساني بقاء قائمًا على المودة والإخاء والتعارف الذي نادت به رسالات السماء، ونادى به الإسلام منذ اللحظة الأولى التي أشرقت فيها شمس النبوة الإسلامية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

(١) الممتحنة: ٨.

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١)، وهكذا يضع الإسلام المعيار الإنساني العام القائم على أخوة الخلق، ووحدة الرب دون تفرقة بين دين أو جنس، فإن النداء في هذه الآية الكريمة نداء للإنسانية جمعاء. (٢)

وهدايات القرآن في التعايش السلمي مع المخالفين في العقيدة من خلال التعامل الإنساني يتحقق بتحقيق جملة من المبادئ التي أصلها القرآن منها:

أولاً: حرية العقيدة وعدم إكراه أحد على الدخول في الإسلام.

لقد أصل القرآن الكريم لمبدأ حرية العقيدة، وخير الإنسان بين اختيار الإيمان أو الكفر، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ (٣)

فالآية تدل دلالة واضحة على اختيار الإنسان لعقيدته، وإلزام الحجة عليه، بعد بيان الحق ونصوعه، فالدخول في الإسلام ليس على سبيل الجبر والإكراه، وإنما على سبيل الاختيار، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (٤)

فالآية الكريمة توضح أن الدخول في الإسلام لم يكن على سبيل الإجبار والقسر، ولكن على التمكين والاختيار ونحوه، قال تعالى:﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (٥)

أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان، ولكنه لم يفعل وبني الأمر على الاختيار"

---

(١) سورة الحجرات :١٣

(٢) مجلة البحوث الإسلامية٥/٢٤٦، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والدعوة والإرشاد.

(٣) الكهف: ٢٩

(٤) البقرة: ٢٥٦

(٥) يونس: ٩٩

(١) ، كما أن سبب نزول الآية يوضح أن هذا الأصل عام، وليس خاصاً بفئة دون فئة، أو أنه مختص بالأجانب الذين لم يربطهم صلة عرق أو نسب أو قرابة، بل هو مبدأ عام حتى ولو كان ولداً لأبيه المسلم.

فقد أخرج عَبد بن حُمَيد عن عبد الله بن عبيدة أن رجلا من الأنصار من بني سالم بن عوف كان له ابنان تنصرا قبل أن يبعث النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم فقدما المدينة في نفر من أهل دينهم يحملون الطعام فرآهما أبوهما فانتزعهما، وقال: والله لا أدعهما حتى يسلما، فأبيا أن يسلما، فاختصموا إلى النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟، فأنزل الله ﴿لا إكراه في الدين ﴾ الآية، فخلى سبيلهما." (٢)

فالأصل ال" أنا إليه القرآن ترك حرية اختيار العقيدة، وهذا دليل وبرهان على أن الإسلام لا يعرف سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام للمخالفين في العقيدة، والواقع العملي في حياة الرسول يؤكد تأصيل هذا الجانب.

يقول الغزالي: " إن صلة الأمّة بالأجانب عنها الذين لا يدينون بدينها، فإنّ الرسول –عليه الصلاة والسلام– قد سنّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصّب والتغالي، والذي يظنّ أنّ الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر، وأنّ المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلّط هو رجل مخطئ، بل متحامل جريء!. ، فعند ما جاء النبيّ –عليه الصلاة والسلام– إلى المدينة، وجد بها يهودًا توطّنوا، ومشركين

---

(١) انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ٣٣١/١ المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)،دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالماثور١٩٨/٣، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)– تحقيق: مركز هجر للبحوث، الناشر: دار هجر – مصر،سنة النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

مستقرين.

فلم يتّجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قَبِل عن طيب خاطر وجود اليهود والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهداهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه"

ومن بنود المعاهدة التي تأصل ذلك:

أولاً: أنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

ثانياً: أنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَم وأثِم، فَإِنَّهُ لَا يهلك إِلَّا نفسَه، وأهلَ بَيْتِهِ.

ثالثًا: أنّ ليهود بني النجار والحارث وساعدة وبني جشم وبني الأوس ... إلخ، مثل ما ليهود بني عوف.

رابعاً: أنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبر، دون الإثم."(١)

فبنود هذه المعاهدة تدل دلالة واضحة على سماحة الإسلام، وأنه دين تعايش وسلام، وتعايش أبنائه مع المخالفين لهم في الدين، ومراعاة كافة الحقوق والوجبات.

فشعار أمة الإسلام تجاه المخالفين ظاهر للعيان لا ينكره إلا جاحد أو حاقد، **وقد ظلت الدولة الإسلامية**، ولازالت تحافظ على حقوق الذميين، وإعطائهم حقوقهم في ذلك المضمار كامل غير منقوص، فكانت لهم مكانتهم متمتعين بكافة حقوقهم الدينية، يقول (ول ديورانت) :" لقد كان أهل الذمة بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية هذه الأيام ، فلقد كانوا أحراراً في

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١ /٥٠٣، ٥٠٤ المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبومحمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م.

ممارسة شعائرهم الدينية، واحتفلوا بكنائسهم ومعابدهم ". (١)

ومما تجدر الإشارة إليه: أن دعوة الإسلام عالمية، وأنها تشمل المخالفين في العقيدة من اليهود والنصارى شريطة أن تبلغهم الدعوة، والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢).

والدليل من السنة:" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ، وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ." (٣)

ثانياً: تحقيق العدل وتحريم الظلم:

لقد أصل القرآن مبدأ تحقيق العدل وتحريم الظلم، وجعله مبدأ عام يتساوى فيه كل بني الإنسان على اختلاف مذاهبهم وديانتهم، وإذا نظرنا إلى آيات الذكر الحكيم نجد دعوة القرآن إلى العدل دعوة عامة لا تقبل التجزئة كغيرها من المبادئ الأخرى كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد قال تعالى:﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤)

ففي هذه الآية الكريمة دعوة إلى تحري العدل، وعدم الظلم حتى ولو كانوا أعداء، وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا

---

(١) قصة الحضارة :ول ديورانت ترجمة عربية لمحمد بدران: ٣١/١٣ ط القاهرة ١٩٦٤ م.

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم،٩٣/١ ح٣٠٣ ط: دار الجيل.

(٤) المائدة: ٢.

الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (١).ففي هذه الآية دعوة من الله لعباده المؤمنين بأن يلزموا القسط، وهو العدل في أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم، والحذر من اتباع الهوى الذي يؤدي إلى الظلم والجور. يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية:" أَيْ فَلَا يَحْمِلَنكُمْ الْهَوَى وَالْعَصَبِيَّة " وَبُغْض النَّاس إِلَيْكُمْ عَلَى تَرْك الْعَدْل فِي أُمُوركُمْ وَشُؤُونكُمْ بَلْ اِلْزَمُوا الْعَدْل عَلَى أَيّ حَال كَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَا يَجْرِمَنكُمْ شَنَآن قَوْم عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَب لِلتَّقْوَى ﴾ (٢)

ولقد حمل صحابة النبي صلى الله عليه وسلم على عاتقهم هذا المبدأ، وطبقوه في حياتهم العملية، وضربوا أروع الأمثلة في تحري العدل، فقد لقب عمر –رضي الله– عنه بالفاروق، فكان مثلا أعلى في تحري العدل، والبعد عن الظلم، وسيرته العطرة خير شاهد على ذلك ،كما نأوا بأنفسهم عن متعلقات الدنيا، فكانوا مضرب مثل في تحري العدل، وعدم اتباع الهوى، فعندما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلي يهود خيبر، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ دَعْنَا نَكُونُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ نُصْلِحُهَا وَنَقُومُ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَا لِأَصْحَابِهِ غِلْمَانٌ يَقُومُونَ عَلَيْهَا، وَكَانُوا لَا يَفْرُغُونَ أَنْ يَقُومُوا عَلَيْهَا ، فَأَعْطَاهُمْ خَيْبَرَ عَلَى أَنَّ لَهُمْ الشَّطْرَ مِنْ كُلِّ زَرْعٍ، وَشَيْءٍ مَا بَدَا لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَأْتِيهِمْ فِي كُلِّ عَامٍ، فَيَخْرُصُهَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ يُضَمِّنُهُمْ الشَّطْرَ، فَشَكَّوْا إلَى رَسُولِ اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شِدَّةَ خَرْصِهِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: تُطْعِمُونِي السُّحْتَ، وَاَللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ النَّاسِ إلَيَّ، وَلَأَنْتُمْ أَبْغَضُ إلَيَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ مِنْ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، وَلَا يَحْمِلُنِي بُغْضِي إيَّاكُمْ، وَحُبِّي إيَّاهُ عَلَى أَنْ لَا أَعْدِلَ عَلَيْكُمْ،

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، المؤلف : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ،٣١٠/٤ ، ط :دار النشر : مؤسسة قرطبة مكتبة أولاد الشيخ.

فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ "(١).

وبالتطبيق العملي لمبدأ تحقيق العدل، وتحريم الظلم نثبت ونؤكد للإنسانية بأسرها أن الدين الإسلامي دين عدل وإنصاف، لا دين جور وإجحاف.

ثالثاً: البر وحسن العشرة والمعاملة:

لقد رسم القرآن الكريم طبيعة العلاقة بين المسلمين وبين مخالفيهم في الدين، وهي علاقة حميمة قائمة على البر، وحسن العشرة والمعاملة، فقال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ؛ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .قال الطبري: "عنى بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم...، وقوله: ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ يقول : إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرون من برهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم." (٣)

وجاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا وَانْتَقَصَهُ وَكَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ

---

(١) نيل الأوطار، ٨ /٥٨ ، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ) تحقيق: عصام الدين الصبابطي الناشر: دار الحديث، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣)تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،٢٢/٥٧٣ :٧٤ ٥/ المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).

أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "، وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِأُصْبُعِهِ إِلَى صَدْرِهِ: " أَلَا وَمَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ رِيحَ الْجَنَّةِ, وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا" (١)

وعنه أنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَنْ آذَى ذِمِّيّاً فَأَنَا خَصْمُهُ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمُهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (٢). وأمر سبحانه بحسن الصحبة للوالدين، وإن جهدا في رد ابنهما عن التوحيد إلى الشرك، فإن ذلك لا يقطع حقهما في بره، وحسن صحبته، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (٣)

وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: قَدِمَتْ أُمِّي، وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَمُدَّتُهُمْ مَعَ أَبِيهَا، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُهَا؟، قَالَ: "نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ"(٤)

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ٩/ ٣٤٤ ح ١٨٧٣١، لايأخذ المسلمين من ثمار أهل الذمة / المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)/ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات ،الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م وأخرجه أبو داود في سننه ،١٣٦/٣ح ٣٠٥٤ ط دار الكتاب العربي ـ بيروت: وقال الألباني : صحيح.

(٢) أورده المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير،١٩/٦ ح٨٢٧٠ ، وقال الألباني ضعيف

(٣) أورده المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير،١٩/٦ ح٨٢٧٠ ، وقال الألباني ضعيف

(٤) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح المختصر، باب صلة المرأة أمها ولها زوج ،٢٢٣٠/٥ ، ح ٥٦٣٤ ، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة – بيروت ،الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

ثَلَاثٌ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فِيهِنَّ رُخْصَةٌ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لِمُسْلِمٍ كَانَ أَوْ كَافِرًا، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ إِلَى مُسْلِمٍ كَانَ أَوْ كَافِرًا "(١)

والحديث يدل دلالة واضحة على وجوب البر، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة في المعاملات الإنسانية، لا فرق في ذلك بين مسلم أو كافر، ولا يجوز الرخصة أو التهاون في هذا المبدأ لأحد كائن من كان.

ولقد طبق الصحابة –رضوان الله عليهم– هذا المبدأ في حياتهم العملية، وضربوا في ذلك أروع الأمثلة.

والسيرة النبوية العطرة لحياة النبي وصحابته الكرام خير شاهد على ذلك، وقصة الجار اليهودي الذي كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم مشهورة معروفة.وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو –وَغُلَامُهُ يَسْلُخُ شَاةً – فَقَالَ: يَا غُلَامُ، إِذَا فَرَغْتَ فَابْدَأْ بِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: الْيَهُودِيُّ أَصْلَحَكَ اللَّهُ؟، قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُوصِي بِالْجَارِ، حَتَّى خَشِينَا أَوْ رُئِينَا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ" (٢).

كما رسم الرعيل الأول لحياة الصحابة الصورة الوضاءة، وسطروا أروع الأمثلة، في التكافل والتضامن الاجتماعي، والتعايش السلمي مع الأخرين من غير المسلمين.

فقد كتب خالد بن الوليد لنصارى الحيرة: " أيما شيخ ضعف عن العمل

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيفاء بالعقود، ٣٠٢/٦ ح ٤٠٥٤، وقال الألباني: ضعيف، انظر فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوي ٣٠٦/٣ ط: المكتبة التجارية الكبرى – مصر الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد،٥٨/١ ح ١٢٨، وقال الشيخ الألباني: صحيح/ المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ -١٩٨٩.

، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه؛ طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله". (١)

"**وعَن أبي بكرَة قَالَ**: مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِبَابِ قَوْمٍ وَعَلَيْهِ سَائِلٌ يَسْأَلُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ، فَضَرَبَ عَضُدَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَقَالَ: مِنْ أَيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْتَ؟ ، فَقَالَ: يَهُودِيٌّ، قَالَ: فَمَا أَلْجَأَكَ إِلَى مَا أَرَى؟.

قَالَ: أَسْأَلُ الْجِزْيَةَ وَالْحَاجَةَ وَالسِّنَّ، قَالَ: فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَضَخَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَنْزِلِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ ، فَقَالَ: انْظُرْ هَذَا وَضُرَبَاءَهُ؛ فَوَاللَّهِ مَا أَنْصَفْنَاهُ أَن أكلنَا شبيته ثُمَّ نَخْذُلُهُ عِنْدَ الْهَرَمِ:

﴿إِنَّمَا الصَّدقَات لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِين﴾ ، وَالْفُقَرَاءُ هُمُ الْمُسْلِمُونَ وَهَذَا مِنَ الْمَسَاكِينِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَوَضَعَ عَنْهُ الْجِزْيَةَ وَعَنْ ضُرَبَائِهِ.

قَالَ: قَالَ أَبُو بكرَة: أَنَا شَهِدْتُ ذَلِكَ مِنْ عُمَرَ، وَرَأَيْتُ ذَلِكَ الشَّيْخَ." (٢)

وبالتطبيق العملي لمبدأ البر، وحسن العشرة، والمعاملة كما أمر ربنا وأوجب، تتلاشى الدعوات الكاذبة والشعارات المغلوطة بأن الإسلام دين عنف وإرهاب، وأن المسلمين لا يعرفون إلا لغة التشفي والقتل والانتقام مع من يخالفهم .

---

(١) الرسول القائد، ٤٥/١، المؤلف: محمود شيت خطاب (المتوفى: ١٤١٩هـ) الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: السادسة -١٤٢٢ هـ.

(٢) الخراج، ١/ ١٣٩، المؤلف: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري (المتوفى: ١٨٢هـ) الناشر : المكتبة الأزهرية للتراث أما رواية الأثر عن عمر بن نافع فالذي روى الأثر عنه أبي بكر بسقوط التاء وهو أبي بكر ابن زنجويه ، وقد نص المزي على أنه هو الراوي عن أبي بكر العبسي، وأما العدوي فهو ثقة. فالأثر ضعيف.

المطلب الثاني: هدايات القرآن في التعايش السلمي من خلال العزة الإيمانية، وإثبات الذات

يعيش المؤمن في الحياة الدنيا عيش السعداء ما بين العزة الإيمانية من جهة، وإثبات ذاته وكيانه المستمدة من اعتزازه بدينه من جهة أخرى، وذلك بالتزام أوامره، واجتناب نواهيه، وعبادته سبحانه حق العبادة، فالتعايش السلمي مع أهل الكفر يجب أن يكون متماشيًا مع طبيعة ديننا الحنيف، والالتزام بمبادئه وقواعده، والحفاظ على هيمنته وعالميته، لا يداهن ولا يرضى الدنية في دينه ومبادئه، فليس هذا من صفات المؤمنين، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن العزة خلق من أخلاق المؤمنين التي يجب أن يتحلوا بها ويحرصوا عليها، ولقد وصف الحق –تبارك وتعالى– عبادة المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٢) .

ومدح صحابة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تبارك اسمه: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٣).

والشدة على الكافرين تستلزم العزة، قال تعالى: ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤) .

فهذه الآية الكريمة تغرس في نفوس المؤمنين معاني العزة والكرامة، ولابد للمؤمن أن يكون مستمسكا بها، لا يقبل الضيم أو الدنية في نفسه التي تحمل في طياتها أعلى درجات الرفعة والكرامة.

ولقدتعالى:له —سبحانه– مثلاً من الأمم السابقة التي استجابت لأمر ربها،

---

(١) المنافقون: ٨.

(٢) المائدة: ٥٤.

(٣) الفتح: ٢٩.

(٤) آل عمران: ١٣٩.

وخرجت للقتال متسلحة بسلاح العزة الإيمانية، فكان جزاؤها كريماً، وثوابها عظيماً، حيث خاضت المعارك من أجل عقيدتها ومبادئها، ولم تهن أو تضعف، بل صبرت وصابرت، وكافحت وناضلت حتى ظفرت وانتصرت، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، الذي ينصر من استمسك بالعزة والإباء، قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) .

ومظاهر التعايش السلمي من خلال تحقيق العزة الإيمانية، وإثبات الذات يعد مرآة يرى فيها غير المسلم صورة الإسلام الحقيقية، فلابد للمسلم أن يثبت ذاته وكيانه بالعمل والمصابرة، وأن يكون متميزًا ناجحًا مخلصًا في عمله، وأن ينافسهم في الأمور المشروعة، ويتفوق عليهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

فالمنافسة في الخيرات تَقتضي السباق، والتسابُق ثم التفوُّق، والتفوق المقصود: هو التفوق الذي يُرجى من ورائه رضا رب الأرباب، من هنا تأتي أفضلية البشر على بعضهم.

والخيرات: كلمة جامعة لكل أنواع المرغوبات المباحة، واللازمة؛ لعيش البشرية، والخير: ما يرغب فيه الكلُّ كالعقل مثلاً، والعدل، والفضل، والشيء

(١) آل عمران :١٤٦ :١٤٨.

(٢) البقرة: ١٤٨.

النافع، وضده: الشر، والخير المطلَق: ما كان مرغوبًا فيه بكل حال، وعند كل أحد" (١).

وهدايات القرآن في التعايش السلمي من خلال تحقيق العزة الإيمانية، وإثبات الذات لابد وأن يصحبه علو الهمة، فعلو الهمة من أخلاق المؤمنين، كما أنها يؤتى ثمارها ويظهر فضلها عند مواجهة الصعاب وترك الأوطان ، والواقع العملي لحياة الرعيل الأول من الصحابة والتابعين يجد أن تطبيق العزة الإيمانية، وإثبات الذات، وعلو الهمة من شعار السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، "وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقدًا نافذا؛ لا لفظًا فارغًا، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال؛ لا تحية تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم لها أثر.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال، فقد حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين، فما نزل مهاجريّ على أنصاري إلا بقرعة! وقدّر المهاجرون هذا البذل الخالص فما استغلّوه، ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجّهون إلى العمل الحر الشريف.

روى البخاريّ: "أنهم لما قدموا المدينة، آخى رسول الله –صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إنّي أكثر الأنصار مالاً؛ فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدّتها فتزوجها، قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟

فدلّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن! ثم تابع الغدوّ، ثم جاء يومًا وبه أثر صفرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "مهيم؟،

(١) روح البيان،٦٣/٦ ، المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ) الناشر: دار الفكر – بيروت.

قال: تزوجت، قال: «كم سقت إليها؟» ، قال: نواة من ذهب!." (١).

فعبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه– تعفف عن قبول ما عرضه عليه سعد بن الربيعة بمقتضى الأخوة التي كانت بينهما، واعتمد على نفسه في إثبات ذاته وكيانه، وعلت همته وقويت عزيمته، ونافس اليهود قي سوقهم، وخلال بضعة أيام استطاع أن يكفي مؤونة نفسه، ويحصن فرجه، وتلك هي صنيعة الإيمان في نفس الإنسان.

ولقد عايش الصحابة –رضوان الله عليهم– معاني العزة الإيمانية عند الشدائد المزلزلة في غزوة الأحزاب، والتي صحبها علو الهمة، فصنعت المعجزات، فقد تعرض المسلمون في هذه الغزوة لصنوف الابتلاء من التآمر الداخلي، والغدر بالعهود والمواثيق، والحشد الحربي المتحزّب من أكبر القبائل العربية، قال تعالى مصورا حالهم: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (٢).

في تلك المحنة القاسية تسلح الصحابة بسلاح الإيمان، وعلت هممهم، وقويت عزيمتهم، فتحققت العجائب، وقام المسلمون بحفْرَ الخندق حول المدينة، وعَمِلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تَرْغِيبًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْأَجْرِ، وَعَمِلَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ، فَدَأَبَ فِيهِ وَدَأَبُوا، وقد بلغ طول الخندق خمسة آلاف متر في عرض بلغ ستة أمتار، وعمق بلغ خمسة أمتار، وتم الحفر في مدة تقل عن نصف شهر عمل خلالها المسلمون بكل جد."(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب إخاء النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ،١٣٧٨/٣ح ٣٥٦٩ ط: الناشر: دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

(٢) الأحزاب :١١

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ، ٢١٦/٢ المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أ،يوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة

استطاع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحفروا خندقًا كان طوله خمسة آلاف ذراع، يعني: ثلاثة كم وثلاثمائة وخمسين مترًا، وعرضه تسعة أذرع (ستة أمتار)، وعمقه سبعة أذرع (أربعة أمتار تقريبًا)، وكان العمل في جوٍّ بارد، وتقشُّف معيشة، ومطر وخوف، ومع ذلك كانوا في حمية ويقظة وهمة، وقسم النبي – صلى الله عليه وسلم – بين كل عشرة أربعين ذراعًا، فانتهى هذا العمل الشاق في زمن قياسي؛ حيث افتقدت الوسائل الحديثة في الحفر، ولكن توفُّرت الهمة العالية والعزيمة القوية والتي صنعها الإيمان بالله تبارك وتعالى .

وهدايات القرآن في التعايش السلمي مع غير المسلمين من خلال تطبيق العزة الإيمانية وإثبات الذات لابد وأن يصحبه الحفاظ على الرفعة والكرامة، والمكانة المستمدة من الدين الإسلامي الحنيف، فلا يقبل التنازل عن أدنى حقوقه، ولا يرضى بالدنية على حساب دينه وكرامته.

ولقد سطر السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أروع الأمثلة، وموقف سعد بن معاذ –رضي الله عنه– مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب عندما استشاره في صلح غطفان مقابل أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة خير شاهد على ذلك.

"فعندما اشتد على الناس البلاء يوم الأحزاب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري– وهما قائدا غطفان– وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه ، وعن أصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة (المجاذبة) ، فلما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م، والسيرة النبوية والدعوة في العهد المدني ١/٤٣١ المؤلف: أحمد أحمد غلوش، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤م

ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك، واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا ؟ ، فقال: لا بل شيءٌ أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدٍ ، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما.

فقال له سعد بن معاذ –رضي الله عنه–: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدةً إلا قرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنت وذاك فتناول سعد بن معاذ –رضي الله عنه– الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال –رضي الله عنه–: ليجهدوا علينا ." (١).

فرضي الله عن الصحابة الذين تربوا في مدرسة النبوة، فكانوا منارة للإسلام والمسلمين، فهذا غيض من فيض.

ولقد سطر التاريخ سير لعظماء بحروف من نور، ومعين الأمة المسلمة في هذا الجانب لا ينضب أبدا، فالخير في أمة الإسلام إلى قيام الساعة. فهدايات القرآن في التعايش السلمي مع غير المسلمين التي دعا إليها القرآن من خلال قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢) .

فالدين الإسلامي الحنيف دين رحمة و سلام، لا دين حرب وقتال كما يدعي أعداء الدين ، ورسالة الإسلام إلى الإنسانية كلها رسالة سلم وسلام .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٢٣

(٢) البقرة: ٢٠٨

المبحث الثاني: هدايات القرآن في التعايش السلمي وسنة التدافع

توطئة: لقد خلق الله الإنسان مدنيًّا بطبعة، يتفاعل مع من حوله، ويشارك الإنسان أخاه الإنسان في الحياة العملية، وطبائع البشرية متغايرة، والسجايا مختلفة في دنيا التفاعل والمشاركة" ولأن كلاً منا يحتاج إلى الآخر فلا بد من إطار التعايش السلمي في الحياة، لا أن يكون العراك هو أساس كل شيء؛ لأن العراك يضعف القوة ويذهب بها سدى، وسبحانه يريد كل قوى المجتمع متساندة لا متعاندة" (١) .

وهذا ما سوف نوضحه من خلال مطلبي هذا المبحث:

المطلب الأول: الأسس التي تبنى عليها العلاقات الإنسانية في القرآن الكريم

لقد نظم القرآن الكريم أسس العلاقات الإنسانية، وهي علاقة قائمة على مبدأ المشاركة والتفاعل بين الإنسان وأخيه الإنسان، فقد جعل الله تعالى الإنسان خليفة في الأرض وزوده بالإرادة والاختيار، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢)، والأرض التي نعيش عليها، خلقها الله سبحانه وسخرها، وجعلها صالحة للعيش لكافة الأنام، قال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (٣)، كما اعترف بكرامة الإنسان باعتباره إنساناً مع قطع النظر عن فكره وعقيدته قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (٤).وجعل الإمداد بالرزق والعطاء عام لكافة الإنسانية، فقال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا

(١) تفسير الشعراوي – الخواطر٥/٢٧٥٤، المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ).

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) الرحمن: ١٠.

(٤) الإسراء: ٧٠.

كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (١).

وجعل قيم الإسلام ومبادئه مطلقة، فأمر بالعدل مع كل بني الإنسان، فقال: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢)، وقال: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ﴾ (٣)، فالآية الكريمة نزلت؛ لتخاطب الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأنسابهم وأحسابهم وأدياهم ونحلهم خطابا مطلقا يمتد ما دامت الحياة الدنيا ، والهدف تذكيرهم بمساواتهم لبعض في الأصل والطبيعة وحقوق الحياة ".

ولم يكره أحدا في الدخول في الإسلام، وجعل الحرية مطلقة في مجال العقيدة، قال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (٤)

وجعل المسؤولية شخصية بالدرجة الأولى، فقال تعالى: ﴿ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ (٥)، وقال: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (٦).

فالاختلاف سنة من سنن الله في خلقه، ولقد جعل الله سبحانه من هذا الاختلاف، التعارف، والتعايش والتعامل، بل والتعاون على البر والخير ومراعاة مصالح العباد والبلاد، والناس بلا شك ليسوا كلهم على درجة واحدة ، فالاختلاف سنة من سنن الله في خلقه ، ولذلك شرع الله سبحانه سنة التدافع ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٧).

---

(١) الإسراء: ٢٠.

(٢) المائدة: ٨.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) البقرة :٢٥٦.

(٥) الأنعام:١٦٤.

(٦) المدثر: ٣٨.

(٧) الحج: ٤٠.

فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على مشروعية سنة التدافع؛ لأجل الحفاظ على التوازن بين البشر، والقتال مشروع؛ لحماية أماكن العبادة، وإقرار مبدأ حرية العبادة، والمعنى: لولا أنه تعالى يدفع بقوم عن قوم، ويكفّ شرور أناس من غيرهم، ولولا تشريع القتال دفاعا عن الوجود والحرمات، لهدّمت مواطن العبادة، سواء كانت معابد للرهبان، أو للنصارى أو لليهود أو للمسلمين، التي يذكر فيها اسم الله ذكرا كثيرا." (١).

هذا بالإضافة أن مشروعية سنة التدافع أمر ضروري، فلابد للإنسان أن يدافع عن نفسه، وماله، وعرضه، ووطنه إن وقع عليه اعتداء من الأخرين؛ لكي لا يعم الفساد في البلاد، ولأجل حماية الدين من ظلم الظالمين وفساد الفاسدين وعبث العابثين.

كما قال ربنا في محكم التنزيل: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ (٢).

وما شرع القتال إلا لتحقيق السلام يقول الشيح أبو زهرة عند قوله سبحانه : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣)

فالأصل في الإسلام هو السلام لا الحرب كما يدعي أعداء الدين.

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ،٢٣٠/١٧، المؤلف : د وهبة بن مصطفى الزحيلي/ الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ.

(٢) البقرة: ٢٥١

(٣)،البقرة : ٢١٣

المطلب الثاني: عقد الذمة

لقد دعا الإسلام أتباعه إلى إبرام عقد الذمة مع أهل الكتاب، لقوله سبحانه: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ (١).

وحكمة عقد الذمة: تحقيق التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم، وتمكين غير المسلمين من الاطلاع على حقائق الإسلام ومبادئه، فيلتقي الجميع على الحق والعقيدة الصالحة. (٢).

والجزية بديل عن حماية المسلمين لأهل الذمة وعن المشاركة في الجهاد، ودليل مادي على الولاء للدولة الإسلامية.

عقد الذمة في اللغة: العهد، وهو الأمان والضمان والكفالة، وعند الفقهاء: هو التزام تقرير الكفار في ديارنا وحمايتهم والدفاع عنهم ببذل الجزية والاستسلام من جهتهم" (٣).

وغاية القتال إقرار السلم وعقد المعاهدة السلمية معهم، حتى يطمئن المسلمون لجانبهم، فلا يكونون خطرا يهدد الدولة من الداخل، فإن قبلوا الإقامة في ديار المسلمين بموجب عهد أو عقد بيننا وبينهم، والتزموا بتطبيق أحكام الإسلام المدنية والجنائية، أي في المعاملات وعقوبات الجرائم، وأدوا ضريبة الجزية وهي دينار عن كل رجل غني، كسائر الضرائب المباشرة وغير المباشرة، التي يدفعها المواطنون في العصر الحاضر، وهي بديل عن خدمة العلم

---

(١) التوبة :٢٩

(٢) الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُه،٥٨٧٩/٨، وَهْبَة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ، دار الفكر.سوريَّة .دمشق، الطبعة: الرَّابعة المنقَّحة المعدَّلة بالنِّسبة لما سبقها (وهي الطبعة الثانية عشرة لما تقدمها من طبعات مصورة)

(٣) المرجع السابق ٥٨٧٩/٨.

أو المشاركة في الجهاد والدفاع عن أراضيهم وممتلكاتهم وأموالهم، فإن شاركوا في المعارك، سقطت هذه الضريبة عنهم.

وقد كان هذا النظام مألوفاً في معاملات الشعوب، وليس الصغار والإذلال والإهانة، وإنما هو التزام الأحكام، أي: القوانين الإسلامية السائدة وإذا انعقدت المعاهدة مع الكتابيين، وجب تنفيذ أحكامها واحترامها من الجانبين، وحرم ظلمهم وتكليفهم ما لا يطيقون.

وتسميتهم بأهل الذمة ليس بمعنى الذم والاحتقار، وإنما الذمة العهد والحماية؛ لأن حقوق المساواة والعدل في معاملتهم بمقتضى ذمة الله ورسوله، أي عهده وميثاقه.

ويسمون أيضاً بالمعاهدين: وهم من بيننا وبينهم عهد محترم من الجانبين.

والتاريخ أصدق شاهد على أن التعايش السلمي وتبادل الود والوئام بين المسلمين وغيرهم من الكتابيين كان هو الصفة البارزة على مدى الأعوام والسنين، لكن نهى الله المشركين عن دخول المسجد الحرام بعد العام الهجري التاسع"(١) .

ومما تجدر الإشارة إليه: أنه يقع خلط ولبس أحياناً بين حسن المعاملة مع الكفار – غير الحربيين – وبغض الكفار والبراءة منهم، ويتعين معرفة الفرق بينهما، فحسن التعامل معهم أمر، وأما بغضهم وعداوتهم فأمر آخر.

وقد أجاد القرافي في (الفروق) عندما فرّق بينهما قائلاً: «اعلم أن الله تعالى منع من التودد لأهل الذمة بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الحَقِّ.. ﴾ (٢)، فمنع الموالاة والتودد، وقال في الآية الأخرى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَذِينَ لَمْ

(١) التفسير الوسيط ١/٨٥١، المؤلف : د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر . دمشق، الطبعة : الأولى – ١٤٢٢ هـ.

(٢) الممتحنة: ١.

يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ.. ﴾ (١) .

فلا بد من الجمع بين هذه النصوص، وأن الإحسان لأهل الذمة مطلوب، وأن التودد والموالاة منهي عنهما.. ، وسر الفرق أن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم؛ لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله –صلى الله عليه وسلم– ودين الإسلام.

وقد حكى ابن حزم الإجماع – في مراتبه – على أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح.. ، فيتعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على موادات القلوب، ولا تعظيم شعائر الكفر، فمتى أدى إلى أحد هذين امتنع، وصار من قبل ما نهي عنه في الآية وغيرها.

ويتضح ذلك بالمثل، فإخلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا والقيام لهم حينئذ وندائهم بالأسماء العظيمة الموجبة لرفع شأن المنادى بها، هذا كله حرام، وكذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق، وأخلينا لهم واسعها ورحبتها ... والسهل منها، وتركنا أنفسنا في خسيسها وحزنها وضيقها كما جرت العادة أن يفعل ذلك المرء مع الرئيس والولد مع الوالد، فإن هذا ممنوع لما فيه من تعظيم شعائر الكفر وتحقير شعائر الله تعالى وشعائر دينه واحتقار أهله، وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادماً ولا أجيراً يؤمر عليه وينهى..، وأما ما أمر من برهم من غير مودة باطنية كالرفق بضعيفهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً معهم لا خوفاً وتعظيماً،

(١) الممتحنة: ٨.

والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمورهم.. فجميع ما نفعله معهم من ذلك لا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم، وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا -صلى الله عليه وسلم-، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا، واستولوا على دمائنا وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا عز وجل، ثم نعاملهم بعد ذلك بما تقدم ذكره امتثالاً لأمر ربنا..» (١)

(١) الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق،١٤/٣، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ) الناشر: عالم الكتب، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ

المبحث الثالث: النبي صلى الله عليه وسلم قدوة في ترسيخ أسس التعايش السلمي مع غير المسلمين

النبي صلى الله عليه وسلم مثل أعلى وقدوة طيبة، وأسوة حسنة في ترسيخ أسس التعايش، والتآلف والتقارب والتحاب بين البشر مع بعضهم البعض، بما حباه الله تعالى من كريم السجايا، وعظيم الأخلاق، ولما لا ؟ .

وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه، ورباه فأحسن تربيته، فكان المثل الأعلى في الكمال البشري، فعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"(١)، ولما سُئلت السيدة عائشة –رضي الله عنها– عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت : "كان خلقه القرآن" (٢)، فكان صلى الله عليه وسلم قرآناً يمشي على الأرض ، وكان رحمة للعالمين ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

أي: رحمة للبشرية بأسرها، فكان رحيما حليما يمتلك القلوب، ويهدي الحيارى بحلمه وعفوه وخلقه العظيم، وأدبه الكامل المكمل، فكانت تهفو إليه النفوس، وتلتف حوله القلوب، كما وصفه بذلك علام الغيوب، فقال جل في علاه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٤).

---

(١) أورده الهندي في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ٤٠٦/١١ ، باب فضائل متفرقة ح٥٩٨١٣ لمؤلفه علاء الدين على ابن حسام المتقي الهندي مؤسسة الرسالة الطبعة الخامسة وأورده المناوي في التيسير شرح الجامع الصغير ح١٠٤/١ لمؤلفه الحافظ زين الدين عبد الرءوف المناوي، طبعة مكتبة الإمام الشافعي

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، ١ /١١٥ ح ٣٠٨ طبعة دار البشائر الإسلامية بيروت الطبعة الثالثة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي

(٣) الأنبياء: ١٠٧

(٤) آل عمران: ١٥٩

وهو منة من رب العالمين مَنَّ بها على عبادة المؤمنين، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

ومن خلال سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم ،ومن خلال جهاده الطويل مع الكفار واليهود والمنافقين نحاول جاهدين أن نجني من بستان أسوته الحسنه، وننهل من فيض قدوته الطيبة بعض الزهور الطيبة، والنسمات الفياحة، والرحيق المختوم ، حتي تكون لنا عوناً نستطيع من خلاله تقديم نموذج حيًّا للبشرية بأسرها؛ لنتعرف من خلاله كيف كان منهجه صلى الله عليه وسلم في طريقة التعامل مع غير المسلمين من اليهود والمشركين؛ لتكون لنا زاداً يعيننا على مجاوزة الصعاب , ومخلصًا يخلصنا من هجير الحياة , ودافعا يدفعنا للأمام قدما نحو طريق التفاعل والتعايش السلمي مع كافة البشرية خاصة مع المخالفين في العقيدة .

"**وقد ثبت أن النبي –صلّى الله عليه وسلّم–** عامل طوائف اليهود الثلاث حول المدينة (وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة) أحسن معاملة في بدء الأمر وأثنائه ونهايته، ففي البداية بعد الهجرة إلى المدينة عقد معهم صلحا معروفا هو وثيقة المدينة، ووادعهم وعاهدهم على المسالمة وألا يحاربوه ولا يمالئوا عليه عدوا له، وأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، ويتمتعون بالحرية الكاملة، وفي أثناء الحياة القائمة على التعايش السلمي نقضوا العهد، وخانوا النبي، وانضموا إلى معسكر قريش واشتركوا مع العرب في حرب المسلمين، فاكتفى النبي –صلّى الله عليه وسلّم– بطردهم من جواره، وفي نهاية الأمر لم يعاقب النبي اليهود على خيانتهم وغدرهم، ولكنه أوصى بإجلائهم من جزيرة العرب ومنها الحجاز" (٢)

---

(١)آل عمران: ١٦٤

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ١٢٨/٦،

.فكان النبي صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وقدوة طيبة ، ومثلاً أعلى في التعايش السلمي مع اليهود، بما حققه معهم من العدل والرحمة والحرية الدينية ؛ **وهذا ما سوف ما نوضحه من خلال هذا المبحث :**

مما لاشك فيه أن الدين الإسلامي وشريعته الإنسانية العالمية قامت على دعوة إيمانية وفق مبادئها الإنسانية، كما لخصتها صحيفة المدينة النبوية الدستورية، والتي جاء فيها الدعوة الصريحة، وهذه صحيفة المدينة بحق أول دستور مكتوب ظهر في العالم لم يكن له مثل من قبل ولم يلحق به فيما بعد، **ظهرت الدعوة في هذه الصحيفة** إلى التعايش السلمي والتعاون الإنساني ما بين مختلف الأعراق والأجناس والأديان

- على أساس كلمة سواء ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً.
- وعلى أساس أنه لا إكراه في الدين.
- وعلى أساس البر بمن يخالفنا في الدين ما لم يقاتلونا في الدين أو يخرجونا من ديارنا.
- وعلى أساس التعاون على البر والتقوى ما بين الجميع.
- وعلى أساس أنهم كلهم عيال الله، وأن أحبهم إليه أنفعهم لعياله.
- وأن الله كرَّم بني آدم جميعهم من غير فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود.

وكان الإسلام بذلك وحده الذي أقام السلام في الأرض عملا بمنهاجه ونظامه العالمي الجديد، وشريعته التي احترمت حرية العقيدة لجميع من هم تحت راية الإسلام .(١)

فكان صلى الله عليه وسلم يتعامل مع هؤلاء اليهود حسب ما كانوا يتظاهرون به من المحبة والمودة له- صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه, فأراد النبي صلى

(١) مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة ٧/ ١٨٢٦، المؤلف: تصدر عن منظمة المؤتمر الاسلامي بجدة.

الله عليه وسلم أن يزيد في أسباب التعاون وتبادل المنافع والتعايش معهم على الحق والعدل، فأبرم بينه وبينهم معاهدة عادلة أمنهم فيها على أنفسهم وأقرهم على أموالهم وعقائدهم، بأن كفل لهم الحرية الدينية، وشرط لهم واشترط عليهم أن يتعاونوا ماديًّا وعسكريًّا مع المسلمين متساندين في رد أى اعتداء يوجه للمدينة, لكن اليهود هم اليهود فقد تظاهروا بالمحبة والتحالف مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولما رأوا الأنصار والمهاجرين يلتفون حول النبي صلى الله عليه وسلم ويشكلون القوة التي لا قبل لهم بها , فأبطنوا المخالفة والعداوة والحقد في نفوسهم، ولكن ما لبثوا على ذلك إلا قليلا ، فسرعان ما أظهروا المخالفة، ونكث العهد ، والعداوة والحقد للنبي -صلى الله عليه- وأصحابه .

قال ابن إسحاق: "وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار ودعا فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم"(١)

وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة تتسم بالسماحة والواقعية ومراعاة مصالح اليهود وحفظ حقوقهم، والمعايشة معهم دون ظلم أو إجحاف ، إلا أنهم كانوا غير مخلصين لهذه المعاهدة , فسرعان ما نكثوا العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم، وبادروا المسلمين بالعدوان، وانضموا مع قريش ومن تبعهم في غزوة الأحزاب , إلا أن الله سبحانه نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده, ومكن منهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقتل منهم من قتل ، وأسر من أسر، وأجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة، فطردوا منها شر طردة جزاءًا وفاقًا.

وهكذا كانت معاملته صلى الله عليه وسلم مع اليهود، تعايش وموادعة وأمن وأمان ما داموا على العهد قائمين، وللنبي صلى الله عليه وسلم ولصحابته

(١) السيرة النبوية لابن هشام،١/٥٠١ – سبق ذكر بنود المعاهدة في البحث ص٩.

مسالمين , وحرب وأسر وإجلاء إن خانوا العهد وبادروا بالعدوان.

يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب:" إن غاية الإسلام من حرب أعدائه هو دفع شرّهم، ووقاية المسلمين من الخطر الذي يتهددهم من جهة عدوّهم.... فإذا لم يكن ثمة خطر، فلا حرب، ولا قتل، فإذا كان خطر، فهي الحرب، والقتال والقتل..... فإذا زال الخطر غمدت السيوف، وأطفئت نار الحرب...هذا هو الإسلام في حربه..... إنها الحرب لطلب السلامة والسلام، وليست حربا للبغي، والتسلط..... فأي ميزان أعدل وأقوم من هذا الميزان فيما بين الناس والناس؟ وأي أمن وأي سلام كهذا الأمن والسلام، الذي يجده المجتمع الإنساني في ظل مبدأ كهذا المبدأ، الذي يفرضه الإسلام على أتباعه في وجه العداوة وفى ردّ العدوان، مما تسوقه إليهم الحياة على يد الأعداء والمعتدين؟".(١).

فيجب على المسلمين الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ،والسير على نهجه، وإتباع طريقه في التعايش والتعامل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بأن يعاهدوهم ويوادعوهم ويفرضوا عليهم الجزية ما داموا مسالمين ، وقتلهم ومحاربتهم إن نكثوا العهد وبادئوا المسلمين بالشر .

كما أمر بذلك رب العالمين ،بقوله : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين*إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمين﴾ .(٢)

(١) التفسير القرآني للقرآن، ٣١٢/١٣ ،المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة

(٢) الممتحنة: ٨ – ٩

الخاتمـــــــة

الحمد لله الذي بنعمته وفضله تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من أرسله ربه رحمة للعالمين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين.

بعد هذه الجولة المتأنية والممتعة مع كتاب ربنا وأحاديث نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ للوقوف على مبادئ (**هدايات القرآن في التعايش السلمي مع غير المسلمين**).

يتبن لنا عدة نتائج منها:

١. أن الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم هو السلم والمسامحة، ولا يغير العلاقة السلمية إلا ما يطرأ عليها من اعتداء غير المسلمين على نحو مباشر أو غير مباشر على حرية الدعوة، أو المساس والعبث بأصل من أصول الدين.

٢. عدم إكراه غير المسلمين على اعتناق الإسلام بأي وجه من الوجوه، مع وجوب عرضه عليهم دعوة وتبليغاً، وتمكينهم من ممارسة تعاليم دينهم، وعدم سب ما يعبدون على أن لا يمسوا بالشعور العام.

٣. يلتزم المسلمون في علاقاتهم الإنسانية – ومن ضمنها العلاقة بغيرهم – بالمبادئ الخلقية الثابتة الواضحة كالرحمة، والمحبة، والعدل، والمساواة، والمعاملة بالمثل، والتمسك بالفضيلة، والحرية، والتسامح، والتعاون، والوفاء.

٤. تتسع مجالات التعامل الاجتماعي بين المسلمين وغيرهم فيما لا يمس باعتزاز المسلمين بأحقية دينهم وتميز عبودياتهم وأخلاقهم وشخصياتهم الإسلامية، ولا يمثل سبيلا لغير المسلمين عليهم؛ فإن ذلك من الولاء المحرم.

٥. تحت ظل سيادة الإسلام تجد البشرية خلاصها وسعادتها الحقيقية، وأعظم مظاهر السيادة أن تكون الولاية بأيدي المسلمين، وتكون الشريعة هي مصدر

لتشريعاتهم وسياساتهم، وبذلك تصبح كلمة الله هي العليا، وحكمه نافذاً وشريعته مهيمنة.

٦. يظل التعايش السلمي بين الأديان في ظل الدولة المسلمة أمراً ممكناً؛ لأن لغير المسلمين من أهل الكتابين حقوقاً مرصودة في الشريعة الإسلامية، فالإخلال بها تقصير وتنكر للإسلام نفسه، إلا أن فرص نجاحات هذا الإمكان مرهونة بدرجات وعي المسلمين بدينهم.

٧. يشرع الصلح وعقد الهدنة أو اتفاق سلام مع الأعداء، إذا كان محققاً للمصلحة العليا للمسلمين.

٨. إن تحالف المسلمين مع الكفار جائز في مجمله في سبيل صد عدو مشترك من غير المسلمين فقط؛ وذلك وفقاً لقاعدة دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، غير أنه لا يجوز باتفاق أن يمتد مثل هذا الحلف لقتال مسلمين آخرين، ولو كانوا بغاة خارجين؛ لأن عصمة الإسلام تظل باقية لهم مهما جاروا، فلا يصح أن تستباح حرمة دمائهم من قبل الكافرين.

فهرس المصـــادر

١. قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة عربية لمحمد بدران:ط القاهرة. ٩٦٤ م.
٢. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣. تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى،١٤٢٢ هـ/٠٠١ م.
٤. تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
٥. التفسير القرآني للقرآن ، المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.
٦. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ،المؤلف : د وهبة بن مصطفى الزحيلي الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ.
٧. التوضيح لشرح الجامع الصحيح ، المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤هـ) المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث ، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف:عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

٩. الجامع الصحيح المختصر ، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧– ١٩٨٧، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق.

١٠. الدر المنثور في التفسير بالماثورالمؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)- تحقيق: مركز هجر للبحوث ،الناشر: دار هجر – مصر،سنة النشر: [١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م].

١١. روح البيان المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ) الناشر: دار الفكر – بيروت.

١٢. زهرة التفاسير. المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.

١٣. السنن الكبرى،المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،:ط. الثالثة، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م

١٤. السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) المحقق: طه عبد الرءوف سعد/ الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة/الطبعة:الأولى، ١٤٢٧ هـ.

١٥. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، المؤلف: نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ)الناشر: دار ركابي للنشر – الغورية، مصرالطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م.

١٦. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

١٧. محاسن التأويل المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ،الطبعة:الأولى – ١٤١٨ هـ.

١٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة:الأولى– ١٤٢٢هـ.

١٩. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت،ط: الثالثة ١٤٢٠هـ

٢٠. نيل الأوطار المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ) تحقيق: عصام الدين الصبابطي الناشر: دار الحديث، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.